العدد (1851) السنة السابعة - الأحد (18) تمـوز 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

السين في عيون الطين

يوميات (المدى) في باريس

باريس / يوسف المحمداوي

ابتسامات وقبل على اليخوت واخرى على الضفاف

يا دجلة الخير يا أم البساتين
حييت سفحك من يخت على السين

قلنا في الحلقة الأولى ليوميات (المدى) والتي كانت عن يوم الموسيقى العالمي، حيث إننا نحتاج هناك الى أكثر من دهشة وذهول وعيون ولكننا اليوم نحتاج لأكثر من جنون لنتعقل ونحتاج الى أضعاف.. أضعاف صبر أيوب حتى لا نلعن من أساء ودمر البلد وما أكثرهم، الغريب أن دقات قلبي ثابتة ولم استثمر عويلي جيداً، قررت الصمت تماما وتركت الحديث للأشياء، تمنيت أكثر من عين لأرى بها.. كان العزيزان نبيل وباسكال هما عيني ولساني في البرنامج الرائع الذي أعدته وزارة الخارجية الفرنسية لنا مع سفارتها في بغداد، أما الآن فقد وصل أخي كاظم المقيم في السويد لألتقيه بعد فراق طويل ليكون رفيق رحلتي ومترجمي، لاسيما وان لديه ماجستير في اللغة الفرنسية وهي معادلة بالطبع لشهادة ضلوعي باللهجة المحمداوية التي لم أضف إليها من خلال رحلتي غير الـ(بنجور) و(البنسوار).

قال لي كاظم وهو الذي يعرف باريس بعد أن أقام فيها فترة: إذا أردت أن تطلع على باريس حقا يجب عليك التعرف عليها من خلال رحلة في نهر السين، وفعلاً توجهنا في صباح باريسي مشرق الى محطة رسو المراكب واليخوت وقطعنا التذاكر وصعدنا الى يخت أبيض مؤلف من طابقين.. جلسنا في الطابق الثاني، كان الوقت يشير الى منتصف الظهيرة وكانت درجة الحرارة يومها مرتفعة جداً حيث بلغت (٣٢) درجة مئوية، وفي بغداد تجاوزت ذلك اليوم الـ(٥٠) درجة، إيماناً مني احكام الجو والساسة أن يكون ارتفاعها موازيا لارتفاع حمى التنافس على منصب رئاسة الوزراء بين الكتل السياسية.

(٣٢) جسراً على النهر

صعدت معنا أجناس مختلفة من جميع القارات، رجال وأجساد فاتنة تغطيها أشباه ملابس ملونة دليلتنا التي تجمع ما بين لون الورد ولون العنبر تقدمت عنق اليخت، جلست هناك معلنة بداية رحلة الحلم..

هذا هو نهر السين يربط ضفتيه ٣٢ جسراً بعضها تجاوز عمره الثلاثة قرون. يبلغ طوله ٧٧٥ كم، ينبع من فرنسا نفسها ويصب في القنال الانكليزي ويعتبر النهر من أهم الطرق التجارية، فضلاً عن كونه مصدر جذب سياحي وبالذات في العاصمة باريس التي يشطرها الى قلبين من على بعد (٣٧٨) كم من منبعه.. انطلق بنا اليخت الذي يطلق عليه عادة اسم "باتيموش" وكم من باتيموش مذهل مر بنا من هناك وكأنها نوارس تغازل أمواج السين.

نطقت مرشدتنا (لورا).. هذا هو متحف اللوفر أجمل متاحف العالم بلا شك، وكيف لا وهو يحتضن بين قاعاته معظم آثار ورموز الحضارات الإنسانية، المساحة المخصصة للعرض تبلغ الآن (٦٠) ألف متر مربع تضم أكثر من (٣٥) ألف لوحة وتحفة أثرية ويعمل فيه أكثر من ألفي موظف، ومن أهم لوحاته (الموناليزا)، فضلاً عن كونه يحتضن أول تشريع قانوني متمثلاً بمسلة حمورابي وتمثال ربة الجمال وغيرها، إطلالته على السين تعطيه بهاءً أكبر، ولكنكم- والحديث للمرشدة- ستحتاجون الى أيام حتى تستمتعوا وتستكملوا زيارة جميع مقتنياته.

من دائرة الحسابات الى متحف

اجتزنا اللوفر والجسر الملكي الذي بناه الملك لويس الرابع عشر قبالة القصر الملكي الذي أنشأه فيكتور لاين عام ١٩٠٠م لنجد أنفسنا قبالة متحف اورسي الذي يضم في قاعاته ما يقارب الـ(٤٠٠٠) عمل فني لعدد من الفنانين العالميين من أمثال (سيزان، مانيه، فان كوخ، غونمان) وتلك الأعمال والتحف موزعة على ثمانين قاعة بنيت على مساحة (١٦) ألف متر مربع، المتحف كان مجرد إدارة للحسابات أحرقها المتمردون أثناء أحداث عام ١٨٧١، وها هو الآن متحف يقف شامخاً على ضفة النهر مواجهاً بموقعه وتحفه متحف اللوفر في الضفة المقابلة ليحفظا للبشرية قلائد إبداعاتها ونفائس حضاراتها عبر التاريخ.

تركت النهر وأخي ودليلنا ولورا والجميع وعدت الى بلدي مستثمراً أساي بأعلى صيحاته، هنا دوائر مدمرة تتحول الى متاحف ونحن متاحفنا دمرت ومقتنياتها نهبت (١٦) ألف قطعة أثرية مفقودة وتعدد السراق والنهب واحد.. لماذا؟ لم أجد جواباً مقنعاً غير أن أقول.. (للحرام أحكام).

حجارة الباستيل تتحول الى جسر

عدت الى لورا ولم يفتني من حديثها كلمة ما دام جهاز التسجيل بيد أخي الذي يقوم بالترجمة مباشرة، هذا هو جسر الكونكورد الذي تم بناؤه عام ١٨٨٩ بعد الثورة من حجارة سجن الباستيل، ويقودك هذا الجسر الى ميدان الكونكورد الذي يقع بالقرب من مقر الجمعية الوطنية ومجلس الشيوخ اللذين يشمخان في قصر لوكسمبرغ، وشهد ميدان الكونكورد أحداثاً تاريخية مهمة منها تنفيذ حكم الإعدام بالملك لويس والملكة ماري أنطوانيت، وتم إعدام ما يقارب الـ(١٢٥) شخصاً على الجسر وبإزالة المقصلة مع انتهاء تلك الحقبة الدموية عام ١٧٩٥ سمي بهذا الاسم الجديد الكونكورد وتعني (الود).

ومع انسلال المركب تحت أي جسر كانت التحيات بجميع لغات العالم تملأ آذان الراكبين ليردوها بأجمل منها للواقفين عشقاً على الجسور أو المخمورين بمتعة الضفاف.

تمنيت العمى

يخوت جميلة بألوانها بتصاميمها كانت تملأ النهر، بعضها ينتظر دوره في المرحلة وأخرى انطلقت بعشاق النهر باتجاه جنة الله على الأرض، وكل باتيموش أو مركب يستوعب ما بين ٢٠٠-٣٠٠ راكب، وهناك دليل في كل باتيموش يقوم بالتعليق على جميع المواقع والآثار ومجهزة أيضاً بالمصابيح والأضواء الكاشفة أثناء الرحلات لتتراقص أضواؤها كالأقمار في النهر.

وأنا أنظر الى نهر يضحك بكلتا ضفتيه محتفياً بالمراكب والراكبين.. تمنيت في وقتها نعمة فقدان البصر التي وهبها الله لطه حسين الذي عاش ودرس وتزوج في باريس ولم يرها بعينه.. نعم تمنيتها حتى لا أرى ما أراه وأتذكر مأساة دجلتي.. أهواري التي تحول معظمها الى بيوت من الطين أو مناطق أكل عليها التصحر وشرب، ولا من منقذ سوى مؤامرات لدول صديقة وشقيقة وصمت ساسة لتغذية شحوب دجلة العظيم والمراهنة على انقراضه.. نعم تمنيت العمى وصرخت وعذراً للجواهري على ما صرخت به:

(يا دجلة الخير يا أم البساتين)
حييت سفحك من يخت على السين
حييت سفحك والجلاد أعرفه
من حول النهر من ماء الى طين
يا جرح عمري وكم طولاً بلغت به
وحق موجك ملح الطين يرويني
الأم أنت وأهلي والهوى قدرٌ
قولي لمن شردوا الأسماك تأتيني
هذي الجنائن فوق السين فاتنة
لكن جرحك يدمي متعة العين

جسر الصداقة

قالت لورا: هذا هو جسر الاسكندر الثالث وهو من أجمل جسور باريس وضع حجر الأساس له الإمبراطور الروسي نيقولاي الثاني والإمبراطورة اليكساندره مينو دوروفنا عام ١٨٩٦ وهو يمثل عمق ورمز الصداقة الروسية – الفرنسية وحجم التقارب الثنائي والسياسي بين البلدين وما يثير دهشتك هي أعمدة الجسر التي زينت برموز ذهبية توحي بمتانة تلك العلاقة.

هناك حيث أنعم الله لخلقه بالجمال يقع قبر نابليون الأول في الضفة اليسرى من النهر وهو يقع داخل كنيسة القديس لوي التي تتميز بقبتها الضخمة وتعد من أهم التحف المعمارية في القرن السابع عشر، وتم تزيينها بطبقة من الذهب بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية على سقوط سجن الباستيل، إضافة الى نابليون وأفراد من أسرته توجد مجموعة قبور لقادة عسكريين، وتم إدخال رفات نابليون بونابرت الى قبره الذي تولى تصميمه المهندس فيسكونتي في الثالث من نيسان عام ١٨٦١ في تلك الكنيسة التي تسمى بـ(ليز انفاليد).

هذه هي الكنيسة الأمريكية في باريس تم بناؤها عام ١٩٣١ والتي تتميز بزخرفتها الجميلة خصوصاً ما يزين نوافذها الجانبية من دقة فنية رائعة الشكل والتصميم.

المدى وسط النهر

شاطئ ومكتبة وحفلات مجانية

عبد الحكيم العربي الجزائري الذي كان يجلس خلفي مباشرة سألني.. من أين؟ قلت له من بغداد.. قال: كيف حالكم، قلت له كاذباً وبحرقة.. (بخير)، قطع حديثنا صياح الجالسين على الضفاف وهم يطلقون تحيات الفرح والسلام والمحبة.. تذكرت حينها من يطلقون رصاص الموت على بعضهم وهم أبناء جلدة واحدة.

استطرد عبد الحكيم بحديثه قائلاً: في كل عام تقوم بلدية باريس بترميمات جديدة على ضفة النهر، حيث تقوم بجلب كميات من الرمال الناعمة وتسويتها على ضفة النهر اليمنى لتجعلها مشابهة تماماً لشكل الشواطئ البحرية تماماً، وهدف البلدية من ذلك هو توفير الأجواء لسكان العاصمة وضواحيها الذين لا يمتلكون نفقات الاصطياف بالمنتجعات البحرية سواء في الداخل أو الخارج أثناء الصيف وإعطائهم الفرصة للتمتع بالشمس والشواطئ، ولم تكتف البلدية بذلك، كما يقول عبد الحكيم المقيم في باريس منذ أربعة عقود، بل زودت الشاطئ بالعشب الأخضر والأشجار والزهور وملاعب الغولف الصغيرة، مضيفاً: أن رواد شاطئ باريس الجديد خلال الفترة ما بين منتصف حزيران الى منتصف آب من كل عام يبلغ الخمسة ملايين زائر سنوياً سواء كانوا من باريس أو خارجها.

ويتابع عبد الحكيم: وأنا أيضاً أتابع وأقارن بوجع ما بين اعمال وجهد أمانة بغداد وما تقوم به بلدية باريس، ويوما الجمعة والسبت كما يقول عبد الحكيم تقوم البلدية بأحياء حفلات موسيقية مجانية على الشاطئ يحييها عدد من المطربين العالميين (يا سبحان الله يقلدونا)، إضافة الى ذلك افتتحت مكتبة (فلاماريون) فرعا لها على ضفة النهر مقابل متحف اللوفر حتى يحظى زوار الشاطئ بمتعة القراءة على الشاطئ، أنظر الى تلك الفتاة الجالسة وهي سارحة مع نعمة القراءة.

تمتمت مع نفسي قائلاً: "لو كان المشهد هناك لتمتعت المسكينة بنعمة كاتم الصوت وهي جالسة بهذه الطريقة".

تماثيل مطلية بالذهب الخالص

انتبهت الى لورا عفواً الى كاظم وهو يقول: أنظر الى القصر الكبير الذي يجاوره قصر الاكتشاف الذي بني عام ١٩٠٠ وهو قصر كبير جداً يتميز بتعدد القباب التي ملأت بالنقوش والزخارف ويعد مؤرخاً لعصر ما بعد النهضة، وهذا برج الاسكندر الذي يشير الى عمق الروابط الوثيقة بين فرنسا وروسيا، وهذان تمثالان نحتا بغاية الروعة ورقي الفن مطليان بالذهب الخالص، يمثلان فتاتين وقفتا أعلى الجسر تمثلان قوة الارتباط بين ضفتي النهر.. مع تمنياتي للعمى لكنني احتاج أكثر من عين لترى ثم تذهب لأمانيك.

جسر النصر باتجاه ساحة النصر التي يتوسطها تمثال لويس الخامس عشر وقفت الى جانبه المسلة المصرية التي جلبت من الاقصر في مصر وهي بعمر ٣٣٠٠ سنة وهي تابعة للملك الفرعوني رمسيس الثاني أهداها السلطان محمد علي لشارل العاشر عام ١٨٢٣، إلا أنها وصلت باريس في عهد لويس فيليب ويبلغ طولها (٢٣) متراً وتزن (٢٢٠) طناً.

البيت الأبيض الأميركي في باريس

الى جوار تلك المتاحف والآثار المتعلقة بني على شرف الرئيس الأميركي السابق توماس جيفرسون قصر سمي بقصر الشرف، حيث صمم بطريقة تشبه تصميم القصر الأبيض الأميركي.

نعم لا تمتلك غير الصمت لكن لديك عيون ترى وتوثق في أحداثها سحر العمارة والفن والثقافة. المكتبات ممتدة على طول الشارع المحاذي لضفة النهر وما تلمسه في باريس سواء كنت على ضفاف السين أو في قلب عاصمة النور في المترو.. الشارع.. الأرصفة.. المقاهي أن الفرنسي مدمن ومولع بالقراءة كإدمانه على الجبنة الفرنسية وولع المرأة الفرنسية بالتدخين.

انتحار شاعر ومأساة هيجو

قال لي عبد الحكيم في عام ١٩٧٠ انتشلت من هذا النهر جثة الشاعر باول تسيلان الذي عاش الاغتراب في أعمق معانيه، لذلك قرر الانتحار غرقاً في السين، ومن هذا النهر أيضاً والكلام لعبد الحكيم بدأت مأساة أمير الأدب الفرنسي فيكتور هيجو، حيث غرقت أبنته وزوجها في هذا النهر وعلى أثرها أصيبت أبنته الكبرى بالجنون وقد يكون الحزن عليهم ومنفاه موقدة روائعه الأدبية التي أذهل العالم بها.

تشير لورا بأصبعها الى أصغر بيت في باريس لونه أخضر ومصمم بطريقة بناء الكنائس، تقول: نعم هناك العديد من البيوت الصغيرة ولكن أثمانها مرتفعة جدا.. تلك الأكاديميات الخمس التي من ضمنها الأكاديمية الفرنسية المشهورة والتي تختص بالحفاظ على اللغة الفرنسية وتواكب المصطلحات الجديدة التي قد تضاف إليها وتحافظ على القاموس اللغوي الفرنسي.

على هذه الأرض ما يستحق الحياة

ابتسمت بفضول للجزائري لعل في جعبته ما يغني الموضوع، وفعلاً قال لي: الى جانب الأكاديمية الفرنسية تقع ساحة سميت باسم الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش، وفضلاً عن اللوحة التي تحمل اسمه علقت لوحة أخرى كتب عليها (نحن نحب الحياة ما استطعنا إليه سبيلاً) وهو البيت الشعري الوارد في قصيدته (على هذه الأرض ما يستحق الحياة).

معلومة رائعة وبقدر روعتها مؤلمة وأنا أرى في بلدي من يسعى لإزالة بعض النصب وتغيير أسماء الشوارع والساحات التي تمثل تاريخ ورقي وحضارة بغداد وبقية مدننا الحبيبة.

دليلتنا تشير الى منطقة مغطاة بالأشجار يطلق عليها الجزيرة الفرنسية وتقع تحت أقدم الجسور في باريس ومن الممكن وبوضوح مشاهدة العديد من التماثيل التي نصبت عليه، وهي تمثل وزراء الملك لويس الرابع.. مررنا تحت جسر صغير تقول لورا عنه أن اسمه جسر نابليون الثالث وهو يقابل منطقة سان ميشيل التي يتفرع منها الحي اللاتيني الذي تتوسطه منذ القرون الوسطى جامعة السوربون الشهيرة.

استخدام شوكة الطعام لأول مرة

وصلنا الى الجسر الذي يقابل كاتدرائية نوتردام التي بنيت في القرن الثاني عشر الميلادي، هذه الكنسية الرومانية التي تعد من أجمل وأكبر كاتدرائيات العاصمة، شهدت هذه الكنيسة العديد من الأحداث التاريخية منها- والكلام للمرشدة- رفض لويس الرابع عشر سلطة البابا، هذا وقد جسدها فيكتور هيجو بروايته الرائعة (أحدب نوتردام).

هناك مطعم سفل تاور الذي يعد من أرقى وأقدم مطاعم باريس بني في القرن السابع عشر أي في عصر النهضة، وفيه استخدمت الشوكة في تناول الطعام وللمرة الأول من قبل الملك هنري الثامن والعائلة المالكة.

حارسة باريس والمدرسة الانطباعية

تسلل صوت الجزائري الى أذني ليرفدني بمعلومة مهمة عن العالم العربي، وهو من التحف المعمارية التي يلتحم فيها الشرق مع الغرب على جادة الثقافة والفنون، يقول عبد الحكيم: أنا زرت معهد العالم العربي أكثر من عشرين مرة وهو بني على مساحة (٢٧٥٠) متراً مربعاً وتم افتتاحه عام ١٩٨٧ ليكون خلاصة تلاقي الحضارتين العربية والفرنسية، مكتبته تضم (٦٠) ألف كتاب وأكثر من ألف مطبوع يدوي يتردد عليها أكثر من (١٥) ألف زائر شهرياً.

مررنا من تحت الجسر الذي تقف عليه فرانسو الواقفة بطولها كحارس لمدينة باريس.

تقول لورا هذه ساحة لتجمع الفنانين ولا تنسوا أن الانطباعية ولدت على ضفاف هذا النهر ويعود الفضل لصيرورتها وتألقها بين الأعوام ١٨٥٨-١٨٧٠ الى الفنان يوجين بودان الذي استضاف الفنانين (مونيه، كوربيه، بونكسند) وعدد آخر من الفنانين الذين فتحوا عيونهم على الضوء والماء ليكون السين عاصمة إبداعهم وضفته لوحات ريشهم في الهواء الطلق.

بيوت فولتير وجاك روسو وبودلير

نحن الآن قرب جزيرة سانت لويس وهي المنطقة الأكثر غلاءً وجمالاً في باريس، وهذا الجسر يعد من حواضر القرن السابع عشر، وبعد اجتيازه مباشرة ستشاهدون عدداً من البيوت من بينها بيتا فولتير وجان جاك روسو، وهناك يقع فندق لوزان الشهير وبالقرب منه البناية التي تربى بها بودلير.

مررنا على بيت صغير تشير ملامحه الى قدمه، قالت لورا عنه انه أقدم بيوت باريس، حيث تم بناؤه في القرون الوسطى.. تذكرت مدينة الطب ونحن نمر بأقدم مستشفى بباريس حيث بنيت في القرن السابع عشر ولا تزال تعمل حتى الآن، وهناك يقع سجن لاكونيسر جري وفيه قضت ماري أنطوانيت ليلتها الأخيرة.

واردات برج إيفل

متقصداً لم أشأ الحديث عن برج إيفل على الرغم من ان لورا بيختها الغنج تحدثت عنه في بداية الرحلة، فالبرج الذي بني عام ١٨٨٩ من قبل المهندس غوستاف إيفل بني خلال عامين بمجهود (٤٠٠) شخصاً ما بين مهندس وعامل وكل ما صرف عليه من مبالغ عادت كإيرادات من واردات قطع تذاكر الدخول إليه في العام نفسه.. نعم هذا العملاق الحديدي الذي يدر على فرنسا بملايين اليورات سنوياً بني خلال عامين وبأدوات القرن الثامن عشر.

ونحن الآن في القرن الحادي والعشرين عصر التكنولوجيا والتطور المذهل، وبعد مضي سبع سنوات على التغيير وإهدار ما يقارب الـ(٤٠٠) مليار دولار..

ماذا بنينا في البلد يا سادة البلد.. أسكت سؤالي تصفيق مجموعة من التلاميذ الصغار بعد وصولنا الى محطة مغادرة الحلم.. وأنا أسير بينهم تذكرت سفراتنا المدرسية الى سامراء وآثار بابل وسلمان باك.. تذكرت حينها ما نردده أثناء تلك السفرات من أهازيج وأناشيد منها (المايزور السلمان عمره خساره) وغير آبه لشيبتي رددت معهم هناك (المايزورج باريس عمره خساره).

فارس يعتلي صهوتي الحصان والجسر

نحتان لفتاتين تمثلان ارتباط ضفتي النهر

كاتدرائية نوتردام